المحاضرة الرابعة: (آثار شرقية) د. حسان عبد الحق

آثار العصر البابلي القديم

يمتد هذا العصر من سقوط سلالة أور الثالثة في أواخر القرن الحادي والعشرين قبل الميلادي وحتى سقوط السلالة البابلية الأولى في بداية القرن السادس عشر ق.م.

ينتمي البابليون إلى البدو الأموريون، دخلوا بلاد الرافدين من بادية الشام، وقاموا بإسقاط حكم سلالة أور الثالثة، كما أسسوا العديد من السلالات الحاكمة في عدد من المدن الرافدية، سقطت بابل في عام 1596ق.م على يد الملك الحثي مورشيلي الأول. لم يقدم هذا العصر الكثير من الآثار مقارنةً مع العصور السابقة، والسبب عدم التمكن من الكشف عن بابل بسبب ارتفاع مستوى المياه الجوفي

أولا–المعابد: لقد تم الكشف عن العديد من المعابد التي تنتمي إلى هذا العصر، ويعد معبد عشتار كيتيتوم أحدها، بُنِيَ هذا المعبد من قبل أحد ملوك إشنونا في إشتشالي عند نهر ديالى، ويتميز هذا المعبد بشكله المستطيل ويتألف من ثلاثة معابد، أكبرها كان مخصصاً للإلهة عشتار كيتيتوم.

بنِيَ هذا المعبد فوق قاعدة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار وتم استخدام الطوب في عملية البناء خاصةً في كسوة القاعدة التي بُنِيَ عليها المعبد، وفي بناء أحد الأدراج والأبراج المحيطة بالبوابات الثلاثة. تقع البوابة الرئيسية لهذا المعبد في الجهة الجنوبية، وتقود هذه البوابة إلى باحة مركزية مستطيلة الشكل، تتصل بمدخل على محور البوابة مع حجرة قدس الأقداس، إن مبدأ التناظر مابين البوابة الرئيسية والمداخل الأُخرى هو من أهم سمات العمارة في هذا العصر.

عُثِرَ على معابد أخرى في مواقع أخرى، فعلى سبيل المثال تم الكشف عن أربعة معابد في تل حرمل، أكبرها كان يتشابه مع معبد إشتشالي، أبعاده 28×18م له بوابة خارجية وأُخرى داخلية يحرسها تمثالان لأسدين بحجم قريب من الطبيعي.

ومن المعابد الأخرى التي تنتمي إلى العصر البابلي القديم، المعبد الذي عُثِرَ عليه في تل الرماح، وهو ذو شكل مربع 46×46م، ويمكن الدخول إليه عبر درج يرتكز على أقواس، يشبه هذا المعبد الزقورة فهو يضم عدة طوابق، وحسب المخطط يتألف من ساحة مركزية ذات شكل مربع محاطة بعدد من الحجرات وقد زينت الواجهات الداخلية والخارجية بعدد كبير من الأعمدة مبنية من اللبن والطوب المشوي وأخذت أشكالاً تزينية جميلة (تعاريج لولبية وجزوع النخيل).

ثانياً–النحت: عُثِرَ على عدد من المنحوتات ولكن معظمها تمثل حمورابي البابلي، ولعل أهمها نصب الشريعة الذي يبلغ ارتفاعه 1,90م، ويتضمن في قسمه السفلي نقش لمواد قانون حمورابي، أما القسم العلوي فيوجد عليه نحت نافر، يظهر حمورابي بقبعته ولحيته الطويلة ولباسه الطويل واقفاً أما شماش إله العدالة، ويظهر شماش وهو يقدم لحمورابي العصا والحلقة (رموز السلطة).

هناك أيضاً كسرة نصب من الحجر الكلسي، يوجد عليها نحت نافر لحمورابي حوالي 15,2سم، ويوجد أيضاً كتابة بالسومرية تشير إلى أن أحد الموظفين قدم هذا النصب لإحدى الربات من أجل حياة سيده حمورابي، يَظهر حمورابي أيضاً في هذا النحت رافعاً اليد اليمنى متعبداً، ولحيته طويلة وعلى رأسه قبعة ويوجد على رقبته عقد مزدوج.

لم تُصنع تماثيل هذا العصر من الحجر فقط، بل عُثِرَ على تماثيل من البرونز والطين، ففي معبد إشتشالي عُثِرَ على تمثالين من البرونز، الأول لإله يلبس ثوباً طويلاً ويضع قدمه اليسرى على كبش متسلق، والثاني لإلهة تجلس على كرسي وتحمل بيديها أمام صدرها إناء يتدفق منه الماء، يذكرنا هذا الإناء بربة الينبوع في ماري، أما تمثال الإله فيشبه صورة الإله أمورو، المنقوشة على أحد الأختام الأسطوانية.

يُوجد تمثال برونزي آخر لمتعبد راكع على ركبته اليمنى وإلى جانبه تيس، وحسب النقش السومري الموجود على هذا التمثال فإن هذا التمثال قد قُدم للإله أمورو من أحد الأشخاص من أجل حياته وحياه سيده حمورابي.

تم استخدام الطين أيضاً في هذه الفترة لصنع تماثيل ولوحات فنية مختلفة، ومن أهم الأشكال الفنية المصنوعة من الطين لوحة برني وهي لوحة جدارية بارتفاع 50سم، يوجد عليها نحت نافر

لإلهة مجنحة تحمل بيديها رموز العدالة (العصا والحلقة) وتقف على أسدين رابضين وعلى جانبيها بومتان وهي إلهة الموت ليلت.

عُثِرَ أمام معبد تل حرمل على تماثيل أسود من الطين المشوي، وعُثِرَ على لوحات عديدة من الطين تحمل مشاهد دينية أُسطورية.

ثالثاً-الأختام الأسطوانية: زاد استخدام الأختام الأُسطوانية في هذه الفترة بسبب تزايد النشاطات التجارية الداخلية والخارجية، والدليل على ذلك العثور على كميات كبيرة من الأختام الأسطوانية وطبعاتها التي تعود لهذا العصر.

صُنعت الأختام بشكل عام من حجر الهيماتيت القاسي، ونقشت عليها نفس الموضوعات المعروفة من العصور السابقة مثل تقديم أعطية للآلهة والظهور بمظهر المتعبد أو المحارب، لكن على الرغم من ذلك يوجد بعض التجديدات كتطويل الشكل الإنساني ونقش رموز الآلهة كالأسد وأبي الهول والتنين الأسد والملك المؤله المحارب والكائنات الأسطورية وازدياد المساحة المكتوبة على حساب المنقوشة.

آثار عصور السيطرة الأجنبية (الكاشية والحورية 1595-1160ق.م)

استولى الكاشيون على السلطة في بابل عام 1595ق.م بعد انسحاب الملك الحثي مورشيلي الأول الذي أسقط سلالة بابل الأولى، ثم بدأ الكاشيون بالهجرة إلى بلاد بابل من المناطق الجبلية الشرقية منذ عهد سمسو إلونا خليفة حمورابي، وقد جذبهم غنى هذا المنطقة ليهاجروا إليها فحكموا بابل حتى بدايات القرن الثاني عشر ق.م عندما قضى الحوريون على سلطتهم.

أما الحوريون فهم جماعات بشرية بدأت بالدخول إلى شمالي العراق وشمالي سورية منذ القرون الأولى من الألف الثاني ق.م. واستطاعوا بناء دولة قوية(الحورية-الميتانية) في القرن الخامس عشر ق.م، وامتدت رقعة هذه الدولة من جبال زاغروس في الشرق حتى سواحل المتوسط في الغرب

أولاً-الآثار الكاشية:

1-فن البناء: باستثناء بعض المباني لم يترك الكاشيون أبنية تعبر عن شخصيتهم القومية، بل تبنوا التقاليد الرافدية في العمارة، ومن الأبنية التي تظهر شخصيتهم معبد الملك كارا إنداش في أوروك، الذي بُنيَ من أجل الإلهة إنانا.

ويتسم هذا البناء بسمات معمارية كاشية خالصة، يقع مدخل المبنى في الجهة الجنوبية، يقود إلى حجرة الحرم الكبير بشكل مستقيم عن طريق حجرة صغيرة، ويوجد في الحرم الكبير قاعدة لتمثال، ويحيط بالحجرتين (الحرم- والحجرة الصغيرة) ممران طويلان لكل منهما مدخلان متناظران إلى الحجرة الصغيرة والحرم.

ويوجد اختلاف بين هذا المعبد والمعابد الرافدية فهذا المعبد ليس له باحة داخلية ويتميز بواجهته الخارجية المبنية وفق النمط الكاشي، من الطوب المقلوب على شكل حفر غائرة وبروزات ناتئة وطولانية على شكل أعمدة يبلغ ارتفاعها 20م وتبرز من الحفر الغائرة تماثيل آلهة تحمل بيديها

أبنية يتدفق منها الماء، بينما تزين الأعمدة خطوطاً ثخينة متموجة في إشارة إلى الماء رمز الحياة، وقد تبناها الفنانون فيما بعد في العصر الأشوري الحديث والبابلي الحديث.

ويُعد الملك الكاشي كوريغالزو الأول أحد أهم الملوك الكاشيين الذين اهتموا بأعمال البناء، قام بتجديد معبد نانا(إله القمر) في أور، وبنى معبداً جديداً سامه نينبال الذي كان له تصميم غريب يشبه تصميم البيوت السكنية فقد بنى على مصطبة مرتفعة شكله مستطيل وله مدخل رئيسي في الشرق يؤدي إلى باحة كبيرة لها مدخل جانبي في الجنوب ويتم الوصول عن طريقها إلى حجرة الحرم الموجودة في الجهة الغربية لعبور حجرتين الأولى طويلة والثانية مربعة، ولعل أحد أهم أعمال هذا الملك هو بناء مدينة كوريغالزو، الواقعة على بعد نحو 17 كم غربي بغداد، ويوجد داخل هذه المدينة زقورة ذات شكل مربع تشبه زقورة أور مبنية من اللبن المجفف وكانت مخصصة للإله إنليل، وإلى الشرق من الزقورة تم الكشف عن عدد من المعابد التي بنيت على مصاطب مستطيلة كسيت واجهتها باللبن المشوي وكانت مخصصة للإله إنليل ونينورتا، عَثَر المنقبون أيضاً على قصر في الجزء الغربي من المدينة ويتألف هذا القصر من باحة مركزية مربعة الشكل محاطة بثلاثة أجنحة من الحجرات الصغيرة وبأقسام فرعية تضم باحات صغيرة محاطة بعدد من الحجرات، وقد عُثِرَ في بعض الحجرات على رسوم جدارية.

2-النحت والآثار الأُخرى: تراجع فن النحت في هذه الفترة فلم يُعثر على تماثيل تنتمي لهذه الفترة، واختفت اللوحات النذرية الجدارية وأنصاب النصر، لكن ظهرت فنون جديدة كالنحت النافر بوساطة الطوب المقولب الذي يظهر في واجهة معبد كار إنراش، وهناك فن آخر يسمى الكودورو، وهي كتل حجرية ضخمة نُقشت على سطحها الخارجي مشاهد نافرة وكتابات تتحدث عن الإقطاعية زراعية وهبها الملك لأحد رجالاته أو قادته العسكريين أو غيرهم من المقربين، تظهر المشاهد النافرة مشاهد أسطورية ورموز الآلهة التي تقره شهود على هذه الهبة، بينما تذكر الكتابات صفات الإقطاعية وحدودها والواجبات المترتبة على صاحبها.

أقدم كودورو كاشي يعود إلى الملك سحور يجالزو، وهو مصنوع من الطين ولا يحمل مشاهد نافرة، وهناك كودورو الملك ميليشباك الثاني مصنوع من الحجر الكلسي قاعدته مستطيلة وشكله من الأعلى هلالي، نُحت على الوجه الأمامي لهذا الأثر رموز لأعظم الآلهة البابلية (شباش- مردوك- نابو- نينجيزيدا) أما الوجه الخلفي فتوجد عليه كتابات تتحدث عن إقطاع الملك

ميليشيباك الثاني أرض إلى ابنه مردوك أبال إدينا، والواجبات المترتبة على ذلك على هذه الكودورو وتورد أسماء الآلهة البابلية التي ستعاقبه على ذلك.

ومن الآثار الأُخرى رأس رجل من الطين المشوي تم العثور عليه في دور كوريغازو، تظهر كل أجزائه بشكل واضح(العينان– اللحية– الحاجبان) لكنه يختلف عن المنحوتات الرافدية فهو على الأرجح يعود إلى رجل من خارج بلاد الرافدين، لكنه من الناحية التعبيرية يوجد تشابه مع الفن المصري من الأُسرة الثانية عشرة.

ثانياً– الآثار الحورية الميتانية:

تعتبر مدينة نوزي الواقعة جنوب غربي مدينة كركوك المصدر الرئيس عن الآثار الحورية الميتانية، فهي مدينة مسورة ذات أبراج وبوابات وتخترقها الشوارع وفيها معابد وقصور وشبكة منظمة للمياه، بدأ الاستيطان في هذه المدينة في عهد السلالات الباكرة في منتصف الألف الثالث ق.م وقد أُعيد استيطانها من قبل الحوريين في القرنين الخامس والرابع عشر ق.م.

ومن أهم آثار مدينة نوزي المعبد المزدوج، بني نحو 1450ق.م، كانت جدران أحد المعبدين الداخلية مكسوة بألواح خشبية مثبتة على الجدران بأوتاد خشبية، وفي موضع آخر زينت الجدران بمسامير مصنوعة من الطين المشوي المدجج.

وتم الكشف أيضاً عن قصر، لكنه لم يتبق إلا أجزاء منه، كان مركزاً إدارياً واقتصادياً ودينياً ومقراً للحاكم، لم يبنَ وفق مخطط سابق، وأحيط بسور دفاعي، ويتألف من باحتين مركزيتين لا تقعان على نفس المحور، أحيط بهما عدد من الأقسام التي تضم حجرات ذات أشكال مختلفة وربما كان المدخل الرئيسي للقصر في زاويته الشمالية الشرقية، ومنه يتم الولوج إلى الساحة الأولى.

ومن المكتشفات التي تجذب في نوزي، الفخار الذي كان يختلف عن الأنواع الأخرى للفخار، فهو فخار رقيق مطلي، مزين بأشكال رائعة، بلون أبيض على أرضية سوداء، ومن أكثر الأواني شيوعاً كأس طويل ذو قاعدة مدورة صغيرة، ويوجد عليه تزيينات على شكل خطوط متموجة

وورود وطيور ونباتات، لقد انتشرت صناعة هذا الفخار في خارج بلاد الرافدين في شمالي سورية حيثُ عُثِرَ على نماذج في آلالاخ.

عُثِرَ في نوزي على عدد من الأختام الأسطوانية التي تميزت زخرفتها بالتجديد، ومن الأشياء الجديدة شجر الحياة والطائر الخرافي المجنح الذي ظهر في الزخارف الآشورية المتأخرة.

ويمكن تمييز نوعين من الأختام الأسطوانية الحورية_الميتانية: الأول متقن الصنع ومصنوع من الهيمانيت أو من أحجار قاسية أخرى، أما النوع الآخر صنع من الطين المزجج وأفضل مثال على الأختام الأسطوانية الحورية _الميتانية هو خاتم الملك شاوشتار الذي نقش عليه في الوسط كائناً مجنحاً يمسك بيديه أسدين وإلى جانبه إلهين، ويضم المشهد حيوانات وطيور وكائنات بشرية، ويرفرف فوق الجميع قرص الشمس المجنح.